

أسامة بن منقذ والمرأة**

نصر الدين البهرة

أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن
نصر بن منقذ الكنتاني الكلبى الشيزري، أبو
المظفر مؤيد الدولة:

٤٨٨-٥٨٤هـ=١٠٩٥-١١٨٨م

في

السنة نفسها التي قرأ فيها البابا "أوربانوس الثاني" في كليرمونت خطابه الذي يعد البداية الحقيقية لانطلاق الحروب الصليبية، ولد أسامة بن منقذ في ٢٧ جمادى الآخر ٤٨٨هـ=١٠٩٥م. وقد سمي بذلك الاسم تيمنًا بأسامة بن زيد، الصحابي الجليل أول قائد عربي عهد إليه أمر فتح الشام.

في المقدمة التي وضعها فيليب حتي لكتابه "الاعتبار" الذي حققه يصفه بقوله: "عاش أسامة شهماً فارساً، وزها مجاهداً مقاتلاً، ولمع أديباً وشاعراً. تلهى صياداً وقضى الكثير من سنيّه جواباً."

عاش أسامة في شيزر زماناً ليس بالقصير خلال إمارة عمه سلطان. ومعظم الحوادث التي أرخها في "الاعتبار" جرت في هذه الفترة. وعلى الرغم من أنه كان "أحد إخوة أربعة، هو ثانيهم" فإن عمه اصطفاه، وشمله بعطفه وحنانه، ودربه على فنون القتال والكر والفر. وكما يلاحظ د.حُثي فإنه كان "يمتحن بالسؤال حضور ذهنه في ساعة القتال". وظلت علاقته طيبة بعمه هذا، ما دام لم يرزق بولد، حتى إذا رزق بولد يخلفه تحول عن ابن أخيه أسامة، فغادر شيزر موقتاً عام ١١٢٩. ثم غادرها نهائياً بعد وفاة أبيه شقيق سلطان في ٣٠ أيار ١١٣٧م.

يتنقل بين العواصم العربية

كان أسامة يحب السفر والتنقل، فتتقل بين دمشق والقاهرة والموصل والقدس ومكة والمدينة وسواها. ومكنته مكانته الاجتماعية وثقافته من الاتصال بكبار زمانه. فقد صرف معظم شبابه في البلاط النوري بدمشق، وفي قصر الخليفة الفاطمي بالقاهرة، وغالب سني كهولته في الدار الأتابكية بالموصل، وفي حصن كيفا على دجلة**

أصدقاء في السلم أعداء في الحرب

وكان له موقف متميز من الصليبيين، فقد صاحبهم ولا سيما الفرسان منهم أيام السلم وقاتلهم في زمن الحرب، فقد تعرف شخصياً ببوهمند وتكرّد وقلك من الأفرنج الصليبيين" (**). فكان بذلك مثال الفروسية العربية الإسلامية في أواسط القرون الوسطى (**). ويمكن القول إن سيرته، توازي الأحداث التي جرت في بلاد الشام في القرن الثاني عشر الميلادي. وقد عاش أسامة سنّاً وتسعين سنة قمرية. وهو الزمن الذي غزت بلادنا فيه الجيوش الصليبية في حملاتها الثلاث الأولى.

حروب ومعارك خاضتها شيزر

تقع شيزر التي ولد وشب فيها أسامة على ضفة نهر العاصي الغربية، فوق هضبة صخرية. ويلتف النهر حولها من جهاتها الثلاث، فهي بذلك تشكّل شبه جزيرة، وقد حفر أهلها خندقاً، من الجهة الرابعة، الواصلة بين "شبه الجزيرة" والبرّ مما جعل "شيزر" أكثر مناعة... وصعوبة في الوصول إليها، فقد أمست جزيرة حقيقية. و خلال إمارة "سلطان" عم أسامة، كانت شيزر عرضة لغزوات متتابة من "بني كلاب" في حلب، ومن الحلاجيين "الحشاشين" ومن الروم البيزنطيين ومن الإفرنج الصليبيين.

أيامه الأخيرة ومؤلفاته

بعد أن غادر شيزر، أقام بعض الوقت في دمشق ومصر. وقاتل الصليبيين في فلسطين، في عدة حملات. عاد منها إلى دمشق، مدينته المفضلة، ثم لم يلبث أن غادرها إلى "كيفا". وظل هناك حتى تولى الأمر في دمشق السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي بعث بدعوة إليه، فاستجاب، وقدم إلى دمشق وقد نيف على الثمانين، وتوفي فيها.

ترك أسامة بن منقذ مؤلفات كثيرة يعدّ خير الدين الزركلي في كتابه "الأعلام" منها:

"لباب الآداب" و"البديع في نقد الشعر" و"المنازل والديار" و"النوم والأحلام" و"القلع والحصون" و"أخبار النساء" و"العصا".



عندما تحدث أسامة بن منقذ عن غرائب اللبن في كتابه "أزهار الأنهار" ذكر أن امرأة كبيرة في السن تولت إرضاعه على عادة سراة العرب في الرضاعة.

يقول أسامة: " حين ولدت التمس لي من يرضعني، فقدر الله سبحانه الرزق من امرأة كبيرة قد نيفت عن الستين سنة. ليس لها ولد صغير فدرت علي وأرضعتني إلى حين فطمت. وعاشت بعد فطامي خمس عشرة سنة. وكانت رحمها الله، متى عصرت ثديها طار منه اللبن كأنها مرضعة"

ولست هنا بالطبع لأناقش مسألة هذه المرضع ابنة الستين التي يدر حليبها على النحو الذي وصفه أسامة، وهذا أمر غريب عجيب، ولكن يطيب لي أن أتذكر موضوعاً لفت انتباهي منذ زمن، ذلك أن معظم الذين رضعوا من ثدي سوى ثدي أمهم، كان لهم موقف طيب من المرأة، منذ القدم. ولنا في محمد (ص) أسوة حسنة، هذا النبي العظيم الذي أرضعته "حليمة السعدية" يتيماً، فقيراً، فكان من أعظم المحسنين إلى المرأة، وكان محباً، رجلاً وزوجاً وأباً وإنساناً، وهو القائل: "حُب إلي من دنياكم، النساء، والطيب، وجعلت قرّة عيني بالصلاة". (١)

أثر النشأة الطيبة

لقد كانت نشأة أسامة معافاة في أسرة طيبة، متديّنة.. لكن دون تزمت. ومعروف أن الوازع الأخلاقي صنو الوازع الديني، حتى ليتطابق معه في أغلب الأحيان، فإذا أضفنا إلى ذلك فهم أسامة السليم لمكانة أسرته الاجتماعية والسياسية في "شيزر" والمنطقة كلها، عرفنا لماذا لم ينظر إلى المرأة مثلاً يفعل أبناء الأسر الموسرة، أو أبناء الأمراء.. والرجال الذين يملكون الأرض ومن عليها.

على أن رضاع أسامة من غير أمه، لم يكن يعني إبتعاداً عنها، فقد كان مغموراً غمراً بحب أمه وجدته وأبيه وعمه.. وكل من حوله. وزاده تواضعه حباً على حب. وهو نفسه، في الأصل إنسان حبيب قريب إلى القلوب. ونستطيع القول باختصار إن أسامة بن منقذ عاش حياة نفسية سليمة فيها كل العافية بعيداً عن العقد والإشكالات. وإذا لم يكن بين أيدينا وصف محدد لهيئته ووجهه، فلا بد أنه كان مقبول القوام، حسن الوجه، قوي البنيان، لطيف المعشر... ولولا ذلك لما استطاع أن يقيم علاقات حب مع أي امرأة ..

وإذاً، فقد ظلت المرأة في نظر أسامة تلك الأنثى - الإنسان تُحب كصبيّة جميلة، وتحترم كإنسان، أما كانت أم أختاً أم حبيبة. ولا نرى في مذكراته "الاعتبار" أي إشارة تدل على تعالٍ على المرأة، أو احتقار لها أو نيل من مكانتها..

وهناك نساء كثيرات في حياة أسامة وفي كتابه "الاعتبار". نساء يختلفن كنماذج بشرية سمع بهن أو رآهن ... أو عرف قصصهن في ما مر به خلال عمره الطويل، وقد ناهز السادسة والتسعين لدى رحيله، وسجل ذلك جميعاً في هذا الكتاب.

ونساء من نوع آخر، كانت لأسامة علاقة مباشرة بهن، هن أولئك اللواتي، نعرف أخبارهن في ديوان شعره..

حب وتحفظ وحياء

لقد أحب أسامة المرأة مثلما أحبها سواه من شعراء الغزل المشهورين، والله وحده يعلم، ماعساه كان يكتب لولا ذلك التكتّم الشديد في ما يتصل بذاته، وهو ما لا حظّه المستشرق الفرنسي اندريه ميكيل، عند حديثه عن أسامة بن منقذ في كتابه "شرق حياة بأسرها" (٢) ذلك أنه يظل مطبوعاً بكثير من التحفظ والحياء حتى اللحظة التي يصل فيها إلى آخر ذكرياته.

ولسنا ندري متى كان يقبض لأسامة أن يقول شعر الغزل أو أن يقف مواقفه، وهو الأمير المقاتل الذي أمضى عمره، منتقلاً من ميدان للقتال إلى ساح للحرب، ومن بلد إلى آخر، ومن إقليم إلى سواه. وهل صحيح أن غزلياته تنفّر إلى التوهج والحرارة. مما تتميز به قصائد الشعراء العشاق؟

يقول الدكتور أحمد أحمد بدوي في مقدمته لديوان أسامة "ليس في غزل أسامة هذه الحرارة القوية التي تشعنا بقلب دلّهُ الحب، وأضنته لوعة الغرام، ولا أكاد أتبين له إحساساً تفرد به أو لمحات امتاز بها. وليس معنى ذلك أنه لم يذق الحب بل أرجح أنه ذاقه، وإن كان لم يشغل قلبه كله. وقد استعمل أسامة تشبيهات الأقدمين وأساليبهم في وصف عواطف الحب. ومما يلحظ في غزله أنه شاك حزين، لا تكاد تلمح فيه ابتسامة سرور. وقد يرقّ أسامة أحياناً ويتخذ أوزاناً مرقصة، وتحس ببعض نبضات الحياة في غزله (٣)

وله دستور في الغزل

إن تجربة أسامة في الشعر عامة والغزل خاصة، هي تجربة فريدة، فما أقلّ الأمراء الشعراء والشعراء الأمراء في تاريخ الأدب العربي. إنه أمير مقاتل شهيم غيور، وقبل هذا وذاك إنسان يأخذه الحياء والكتمان. إذن، فلا بد من أن يكون له دستور الخاص في الحب والتغزل. وهكذا فإنه يقترب وهو بعيد، ويبتعد وهو قريب. على أن الزّمام يقلت من يده في أوقات كثيرة، فنحس حرارة لافحة ووجدنا يضرب القلب، وشوقاً يذيب الصبر.

فوق هذا، فإن امرأة بعينها، لا يعرفها أحد سوى أسامة، كانت قادرة وحدها أن تبعث الحرارة في شعره، حين يتصل الأمر بها. ويبدو أنها هي المرأة أو الصبية التي أحب في مستهل شبابه ولم يكن بينه وبينها وصال حقيقي وإنا لنلمح ذلك في كل ما قاله وهو يعينها.

لا بد أنها كانت تجربة قوية تركت ظلالها على حياته، فلم يبرح يذكرها من وقت إلى آخر حتى زمن المشيب:

أحببتها في غفوان الصبا	وقلت إن الشبيب يسألني
فزادني شيبى جنونا بها	حتى كأن الشبيب يغريني
وكالشباب الشبيب لامية	بينهما عند المجاتين

لقد بلغ الأمر به أن عد نفسه بين المجانين... فأى عشق هذا الذي بقي محتفظاً بحرارته حتى آخر العمر:

علقت هواكم فى بلهنية الصبا وقلت إذا وافى المشيب تصرّما
فقد زادني شيبى وتسعون حجة وست مضت لى صبوة وتتيما

أغلب الظن أن الحبيبة التي طارده طيفها حتى سنة وفاته كانت جارة له على نحو ما:
بنفسى قريب الدار، والهجر دونه ويُعد التّقالى غير بعد السباسب
أراه مكان الشمس بعدا، وبيننا كما بين عين فى التّذاني وحاجب
وهل نافعى قرب ومن دون قلبه نوى قذف أعيت ظهور الركائب (٤)

ويبدو أنها كانت تمنّيه حتى إذا اقترب منها ابتعدت، فإذا عاتبها قاطعته:

قمر إذا عاتبته كانت قطيعة جوابى
متجرم أبدا يجر عنى مرارات العتاب
كم سهلت عيناه لى من وصله وعر الطلاب
حتى وقعت ولم يكن هذا التلون فى حسابى (٥)

لقد اضطر أسامة أن يغادر "شيزر" أكثر من مرة، لكنه فى إحدى المرات، سافر والحبيبة قد رسمت هجرا، فجعلت بعده عنها بعدين:

يا ملولا قلما يرعى لمن يهواه عهدا
يا ظلوما قلما استطففته تاه وصدا
لم جعلت الهجر يا مولاي قبل البعد بعدا؟ (٦)

وبين هذا وذاك، يتذكر الشاعر الأمير المقاتل المغوار، أنه قد نسي نفسه وبالف فى التذلل والتقرب، فإذا هو ينتفض كالنسر فى كبرياء

قل لمن أوحش بالهجر جفونى من كراها
والذى أوهم عينى أن فى النوم قذاها
يا ملولا قلما استرعى عهدا.. فرعاها
يا ظلوما قلما استطففته، صد وتاها

زدت فى تيهك والشىء إذا زاد تنهاهى
تتقضى دولة الحسن وإن طال مداها
راحتي لو سمع الشكوى إليه ووعاها
غير أن الصم لا تسمع دعوى من دعاها
وهو لونادى عظامى رمة، لبي صداها (٧)

إذن فهذه هي حبيبة أسامة بن منقذ التي لازمت مخيلته وقلبه ووجدانه منذ أيام الشباب الأولى حتى آخر عهد الشيخوخة. لكنها إن تكن الأولى فلم تكن الأخيرة، إذ أن الأسماء التي يوردها أسامة في أشعاره الغزلية تقطع كل جدل حول ما إن كان ثمة أكثر من صبية تغزل بها أو أحبها. وقد أورد الأستاذ حسن عباس في كتابه (٨) بعض الأسماء التي تتردد أصداؤها في غزليات أسامة: بثينة، لمياء، عصماء، ورويقة.

قد مازجت ماء حسن غير منسكب	نار الحياء بخديه بلالهب
من الملاحاة لا من أسهم الغرب (٩)	سبحان باري سهام من لواظته
فإن رآه أكتن فى السحب	مهفف يخبجل بدر الدجى
من لينه بالفصن الرطب	قوامه يزرى إذا ما أنتهى
نظمه فى البارد العذب	يسم عن در تعالى الذي
بالهجر عن لوم وعن عتب	ألام فيه وهو لي شاغل

وإذا كان أسامة بن منقذ، الأمير المقاتل المحافظ الوقور مع تواضعه، يصر على أن تبقى صورته، في شعره كعاشق غزل، محاطة بإطار من الوقار والحشمة، فإن الحفاظ يفلت من بين يديه أحيانا فيكشف عن نزعة حسية صريحة :

أطع الهوى واعص المعاتب
واصدف عن الواشي المراقب
وتقم الذات إن مرها مر السحاب
وانظر إلى الأغصان حاملة شمساً فى غياها
من كل حواء قد تكفنه ثعابين الذوائب
فى وجهه ضدان كل منهما لليب سالب (١٠)

ويقول أيضاً:

نفسى فدت بدر تمام إذا عاتبنى بالجد أو بالمزاح
سددت بالتقبيل فاه على مسك ودر وعقبى وراح (١١)

على أن أسامة يقدم في ديوانه نماذج متعددة من النساء اللواتي أحب. فهذه هي الخائنة المغضية:

إن خان عهدك من توده ونأى فلا يحزنك فقدّه
واهجره هجر من تحب إذا قضى وحواه لحدّه
وإذا سنلت علام تهجره فقل: ما صحّ عهد
وعلام أرغب في ملول خائن قد بان زهده؟ (١٢)
وهناك الصبية اللعوب:

قل لمن لم يرع عهدى والذي ضيع ودى
يا فدتك النفس قد أسرفت في هجري وصدى
إنما وصلك مبدول لخل مستجد
فابق من هجرك حظاً للذي يهواك بعدي ١٣

وفي الأبيات التالية، لا نرى فحسب نموذجاً آخر من المرأة اللعوب، بل نرى أسامة نفسه، في موقف العاشق المتذلل:

قالوا: أتسلو عن حبيبك؟ قلت: لا، والله عمري
قالوا: ففيه تبذل يأباه مثلك قلت: أئري
لو كان مستورا لماهتك الغرام عليه ستري
وإذا أبت نفسي هواه مع الخيانة... خان صبري (١٤)

والظاهر أن أسامة لم يكن يعدم أن يجد امرأة يحبها، في كل بلد يزوره ونحن نلمح آثار هذه العلاقات، من حيث اتصالها بأقاليم معينة في غزلياته، فمن حبيبة موصلية إلى أسوانية

أسوف صعيد الأرض إذ وافق اسمه صعيدا به أهل الحبيب نزول
وأغدو على أسوان أسوان فى الحشا لبعدي عنها لوعة وغليل

فأخرى لا نعلم من شعره إلا أنها مصرية:

ماهاج هذا الشوق غير الذكر وزورة الطيف سرى من مصر

من بعد طول جفوة وهجر
كم خاض بحرا، وفلا.. كبحر (١٥)

على أن أسامة عاشق الحياة والطبيعة والجمال، من خبر روح هذا الكون ووضع يده على الكثير من أسرارها، من خلال التجارب الكثيرة مع البشر والحيوانات... حتى المفترس منها، ونجا من الموت الذي طالما تلامح أمامه بين عينيه في أحيان كثيرة، حتى إن الزلزال الذي ضرب شيزر وذهب ضحيته أهله جيمعاً، لم يمسه بسوء، لأنه كان في دمشق، ظل مقيماً على حب الجمال والنساء، وفيما لمبادئه في الغزل، حتى الشيخوخة التي شارف في أثنائها على الموت..

من عذيري من شأن لم أطق عنه مع التمسك والتحكم صبرا
أهيف أنبت الجمال بفيه العذب درأ، سقاء مسكا وخمرا
قأعار الغزال عينا وغصن البان لينا والأقحوانة ثغرا
أجتلى منه في ضحى اليوم شمسا وأرى منه في دجى الليل بدرا
فيه أنس وللملاحاة في عينيه مضى نخاله العين ذعرا
قال لى إذ رأى غرامى وصدي أنت تخفى وجدا وتظهر هجرا
أنت كالصائم الذى يشتهى الماء لفرط الظما ويكره فطرا
قلت: دع ذا فأنت شرطي ولكن لم يدع لى المشيب فى الجهل عذرا

تلك هي المرأة الحبيبة عند أسامة بن منقذ. فماذا عن النساء الأخريات نساء العصر الذي عاش فيه الشاعر الفارس الأمير؟

إن أسامة يقدم لنا في "الاعتبار" نماذج يندر أن نطلع عليها في غير هذا الكتاب، في تلك الحقبة من التاريخ. ومن خلال القصص التي يرويها عن النساء، يقدم لنا فرصة ممتازة، كي ننقب إلى المهاد الاجتماعي الذي عاشت فيه المرأة في ذلك الزمن، قبل تسعمئة سنة، مادام قد ولد عام ١٠٩٥م. وهي السنة نفسها التي انطلقت فيها شرارة الحروب الصليبية، يوم قامت الكنيسة الغربية تدعو إلى الحملة الصليبية الأولى في "كليرمون".

المهاد الاجتماعي وحالة الناس

إننا لا نرى المهاد الاجتماعي فحسب، ونحن نتصفح الحكايات التي يرويها أسامة عن النساء بل، إننا نشاهد صورة مقربة عن الحالة السياسية والاقتصادية والثقافية والنفسية التي عاشها الناس في تلك الحقبة. ونلمح في الآن ذاته أشباحاً لروح غريبة عن العرب، في تاريخهم، هي التي ندعوها الآن: الطائفية.

ولا شك عندي أن بن منقذ حين كان يتحدث، عفواً، عن هذا الأمر قبل تسعة قرون تقريباً، فلم يكن ليتصور أن أمته العربية، سوف تعيش زمناً يشبه ذلك في رداءته. ويزيد أن العرب أنفسهم موزعون متفرقون، حتى إن بينهم لأنصاراً لأرباب الحرب الصليبية الجديدة، وممثلتها المعاصرة: إسرائيل.

لقد كان "الإعتراف" أول كتاب يضم مذكرات شخصية في الأدبيات العربية. وإذا كان هذا يمنحه قيمة في ذاته، فإن الحكايات والأحداث التي رواها فيه، ولا سيما ما يخص المرأة منها تضيفي على الكتاب قيمة أخرى، ذلك أنها ليست حكايات فردية تروى، بل تصلح كل واحدة منها لتمثل حالة معينة، فعندما نجمع ما بينها كافة، ينشأ لدينا ما يشبه لوحة فسيفساء ضخمة، تجسد الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والثقافية والنفسية في ذلك الزمن.

وتوضح الحكاية الأولى أن ثمة وراء أسامة بن منقذ تراثاً عريقاً في احترام المرأة والنظر إليها إنساناً كاملاً، في مختلف الظروف والأحوال. لقد وقع عم أسامة: عز الدين أبو العساكر في إحدى الأحاييل مما لا يزال يحدث في بلادنا أحياناً حتى اليوم. فقد وُصف له جمال امرأة وكمال عقلها حتى أرسل من يبصرها، فإذا هي كما ذكر، فخطبها الرجل وتزوجها فلما دخلت عليه رأى غير ما وصف له منها. ثم هي خرساء! فوهاها مهرها وردت إلى قومها، فأسرت من بيوت قومها ذلك اليوم". فقال عمي، يتابع أسامة: "مأدع امرأة تزوجتها وانكشفت علي في أسر الأفرنج. فاشتراها رحمه الله بخمسمئة دينار وسلمها إلى أهلها". (١٦)

الجارية تنقذ سيدها

وتقدم الحكاية التالية نموذج المرأة الذكية. وهو يوردها نقلاً عما حدث به "المؤيد الشاعر البغدادي بالموصل" وينقل عنه قوله: "أقطع الخليفة والدي ضيعة. وهو يتردد إليها. وبها جماعة من العيارين يقطعون الطريق، ووالدي يصانعهم لخوفه منهم، ولانتفاعه بشيء مما يأخذونه. فنحن يوماً جلوس، أقبل غلام تركي على (١٧) حصانه، ومعه بغل عليه خرج، وجارية راكبة فوق الخرج، فنزل وأنزل الجارية". وطلب ممن رآهم مساعدته على حط الخرج، وإذا به حافل بدنانير ذهبية وحلي فجلس هو وجاريته فأكلا شيئاً ثم طلب مساعدته في رفع الخرج ثم سأل عن طريق "الأنبار" فذله والد الشاعر المؤيد البغدادي، ولكنه حذره من العيارين فاستهتر بهم قائلاً: أنا أخاف من العيارين! ويبدو أن والد الشاعر قد اغتاز من هذا الرجل، فأخبر العيارين خبره... وما معه من ذهب، فخرجوا حتى عارضوه في الطريق، وعندئذ أخرج قوسه يريد أن يقاتلهم، فانقطع وتر القوس وهجم عليه العيارون فانهمز، وأخذوا البغل والجارية والخرج. فلم يكن من الجارية إلا أن فكرت فلجأت إلى الحيلة، فأقنعتهم أن يخلوا سبيلها مقابل عقد جوهر ظل مع الغلام التركي قيمة خمسمئة دينار، قائلة: لا تبتكوني وبيعوني نفسي. ولكي يطمئنوا طلبت إليهم أن يبيعوا بعضهم معها. وعندما بلغته قالت له أمامهم: قد اشتريت نفسي والبغل بالعقد الذي في "ساق موزك" خفك اليسار. ويبدو أن "الساق موزك" لرجل التركي أودع وترقوس احتياطياً، ويظهر أنه كان ناسياً إياه. ابتعد التركي قليلاً، على أنه سيخرج العقد، ثم أخرج الوتر فركبه بسرعة على القوس

ورجع إليهم... وما زال يقاتلهم حتى قضى على ثلاثة وأربعين منهم (١٨)

نموذج آخر من النساء

وفي نموذج المرأة التي ذهب عقلها، أحسب أسامة وكأنه أراد أن يربط بين ما يبدو شجاعة أحياناً وبين ذهاب العقل. ولو قال هذا الكلام إنسان غير أسامة وهو المشهود له بالشجاعة والإقدام، لما ترددنا في القول: إنه جبان.

تلك أمة عجوز تدعى "بريكة" كان يملكها كردي من أصحاب أسامة، وقد شوهدت، ذات يوم فيما الصليبيون الذين يسميهم أسامة: الأفرنج، مقبلون في خيلهم ورجالهم وسلاحهم "واقفة بين الخيل على شط النهر، وفي يدها "شربة" تستقي بها وتسقي الناس، وأكثر أصحابنا الذين كانوا على الشرف يقول أسامة - لما رأوا الأفرنج مقبلين في ذلك الجمع اندفعوا نحو المدينة، وتلك الشيطانة واقفة لا يروعيها ذلك الأمر العظيم. (١٩)

وإنما يؤكد جنون هذه المرأة ما رواه أسامة نقلاً عن رجل شاهدها في وضع شاذ فقال: "دخلت في الليل إلى البلد، أريد الدخول إلى داري في شغل لي. فلما دنوت من البلد رأيت بين المقابر في ضوء القمر شخصاً ماهو آدمي ولا هو وحش فوقفت عنه وتهيئته". (٢٠)

ثم أن الرجل لأم نفسه على تخوفه، فجهز ما معه من سلاح ومشى قليلاً وهو يسمع لذلك الشخص زجلاً وصوتاً. ولنسمعه يروي بقية الحكاية: "فلما قربت منه وثبت عليه وفي يدي دشني: - كأنه خنجر - فقبضته، وإذا بها "بريكة" مكشوفة الرأس قد نفشت شعرها، وهي راكبة قسبة تصل بين المقابر وتجوّل. قلت: أي شيء تعملين في هذا الوقت هنا؟ قالت أسحر.. قلت: قبّحك الله وقبّح سحرك وصنعتك من بين الصنائع". (٢١)

امرأة أخت الرجال

...ويولي أسامة المرأة المقاتلة، وصاحبة الروح الوطنية، كما نقول اليوم، اهتماماً خاصاً على أنها امرأة عاقلة ذات رأي وفكر وتدبير، وإن تبد منفعة في بعض المواقف. تلك هي سيدة من آل منقذ، وزوجة أحد أعمام أسامة. إنها أم سنان الدولة شبيب. ويبدو أن ابنها هذا لم يكن كما يشير اسمه رجل قتال ومواجهة، فنصحته المقدم "علوان بن حرار" أن يرجع إلى البيت ليجمع أشياء يعيش بها ويغادر الحصن متسللاً دون قتال. وفيما هو في الدار يجمع الأشياء التي سيذهب بها، "إذا إنسان قد دخل الدار، عليه زردية وخوذة ومعه سيف وترس، فلما رآه أيقن بالموت" ثم إن هذا الإنسان نزع الخوذة عن رأسه، فإذا هو امرأة لم تكن سوى أم ابن عمه ليث الدولة يحيى!

قالت له: أي شيء تريد تعمل؟ قال: أخذ ما قدرت عليه وأنزل من الحصن بحبل، وأعيش في الدنيا. قالت: بنس ما تفعل. تخلى بنات عمك وأهلك للحلاجين - وهؤلاء من طائفة دينية إسلامية عربية كانت بينها وبين آل منقذ مواقع - وتروح؟ أي عيش يكون عيشك إذا افتضحت في أهلك وانهزمت عنهم؟ أخرج قاتل عن أهلك حتى تقتل بينهم... فعل الله بك وفعل... ومنعته رحمها الله من الهرب، وكان من الفرسان المعدودين بعد ذلك (٢٢)

الموت.. ولا تلويث الشرف

والمرأة عند أسامة حريصة على العرض حرص الرجل عليه، وهي ترى الموت أهون عليها من أن يهتك عرضها أو يلوث شرفها. فذات يوم أطال أسامة غيابه عن الدار فظنت أمه أنه قتل، فوزعت ما لديه من سلاح على من يقاتل. وعندما عاد فوجئ بهذا الحقيقة، وفوجئ أيضاً بما دبرته أمه لأخته وفي ظننها أنهم قد يُهزمون -أي أهل أسامة- فأجلستها على روشن في الحصن وجلست قربها، حتى إذا رأت الأعداء قد وصلوا إليهم دفعتهما فرمتها إلى الوادي "قأراها وقد ماتت ولا أراها مع الفلاحين والحلاجين مأسورة". قال أسامة: فشكرتها على ذلك، وشكرتها الأخت وجزتها خيراً، فهذه النخوة أشد من نخوات الرجال. (٢٣)

وتشبه أم أسامة في حكمتها وبعد نظرها جدته. فهو يروي في إحدى حكاياته أنه خرج يوماً مع والده للصيد، وكان هذا مشغولاً به. وعندما حانت صلاة العصر جاء غلام يركض ويقول: هذا الأسد. فتملص أسامة من والده لئلا يمنعه من قتال الأسد وما هوذا يقول:

"ركبت ومعى رمحي، فحملت عليه، فاستقبلني وهدر. فحاص بي الحصان ووقع الرمح من يدي لتقله وطرطني شوطاً جيداً، ثم رجع إلى سفح الجبل وقف عليه، وهو من أعظم السباع كأنه قنطرة، جانع. وكلما دنونا منه نزل من الجبل، طرد الخيل وعاد إلى مكانه، وما ينزل نزلة إلا يؤثر في أصحابنا"

ويصف أسامة كيف وثب هذا الأسد على رجل من غلمان عمه، وهو على حصانه فخرق بمخالبه ثيابه ورائاته - هذه حذاء طويل - وعاد إلى الجبل، فتبعه أسامة فصعد فوق سفح الجبل، ثم "حدرت حصاني عليه فطعنته، نفذت الرمح فيه وتركته في جانبه، فتقلب إلى أسفل الجبل والرمح فيه فمات الأسد وانكسر الرمح (٢٤)"

قصة أسامة مع عمه

....في هذه الفترة من عمر أسامة كانت الجفوة قد بدأت تحصل بينه وبين عمه، وهو الذي كان في ما قبل يُعزّه بأفضل مما يعز ولده - وكان حينذاك دون ولد، فعندما رزق به أخذ يتحول عن أسامة - وكانت هذه مشكلة حقيقية عند أسامة، لم يكن يدري كيف يحلها. ولذلك فإنه، عندما جاءت جدته لأبيه في مساء ذلك اليوم تعاتبته على "المخاطر" التي ركبها قال: "يا ستي إنما أخاطر بنفسي في هذا ومثله لأتقرب إلى قلب عمي"

فردت عليه بحكمة امرأة بلغت المئة من عمرها كما يعلن أسامة في هذه المناسبة قائلة:

لا والله، ما يقربك هذا منه، وإنه يزيدك منه بعداً، ويزيده منك وحشة ونفوراً.

يقول أسامة: فعلمت أنها رحمها الله نصحتني في قولها وصدقنتني. (٢٥)

المرأة والشعور بالمسؤولية

وليست المرأة الشريفة عند أسامة بن منقذ هي من سلم عرضها فحسب، بل هي المرأة التي

تملك وجداناً نقياً، تتداخل فيه الأخلاق الصافية والصحة الوطنية والشعور بالمسؤولية.

وهو يقدم لنا نموذجاً عن هذه المرأة، زوجة علي بن أبي الريداء، وهو رجل "رزقه الله تعالى من النظر مارزق زرقاء اليمامة. لكنه أثر أن يختتم حياته مرتزقاً في "خدمة توفيل الإفرنجي صاحب كفر طاب- وهذه بلد بين حماء ومعرة النعمان - فكان ينهض بالإفرنج إلى المسلمين، يُغْنمهم ويبالغ في أذى المسلمين وأخذ مالههم وسفك دمههم، حتى قطع سبيل المسافرين. وله امرأة معه بكفر طاب تحت أيدي الأفرنج، تكرر عليه فعله وتنتهاه فلا ينتهي. فنفذت، أحضرت نسيباً لها من بعض الضياع، وأظنه أهاها - يقول أسامة - وأخفته في البيت إلى الليل. واجتمعت هي وهو على زوجها علي بن أبي الريداء، قتلاه"

تقتل الأعداء بسلاح المرأة الخاص

ويستطرد أسامة قائلاً: "وأصبحت عندنا بشيرز وقالت: غضبت للمسلمين مما كان يفعل لهم هذا الكافر. فأرحمت الناس من هذا الشيطان، ورعينا لها ما فعلت. وكانت عندنا في الكرامة والاحترام. (٢٦)

لقد سعت هذه المرأة إلى قتل زوجها الخائن. أما المرأة الأخرى "تضرة" فإن جهودها تركزت على قتل أكبر عدد ممكن من الأعداء الصليبيين. ومما بلغ أسامة عنها ما ذكره من أنها "خرجت مع الناس، أخذت أفرنجياً، وأدخلته بيتها. وخرجت أخذت آخر أدخلته بيتها. وعادت خرجت أخذت آخر، فاجتمع عندها ثلاثة من الأفرنج، فأخذت ما كان معهم وما صلح لها من سلبهم وخرجت، ودعت قوماً من جيرانها قتلوهم. (٢٧)

.. إذاً، هذا هو أسامة بن منقذ، وتلك هي المرأة كما رآها، ولقد رآها في أفضل صورها، سواء كانت صبية يحبها ويفرد لها حيزاً ممتازاً في ديوان شعره، ويصف محاسنها ويتغزل بها. أو كانت امرأة يشاهدها ويسمع بها، من حوله في الواقع الذي يزخر بالحياة والنماذج الإنسانية. ولسنا ندري إن كانت هذه هي جميع الحكايات والحوادث التي سمع بها أسامة أو عرفها عن النساء في زمنه وأراد ذكرها في كتابه هذا: "الاعتبار" أم تراه سمع قصصاً وأخباراً مختلفة اختار منها تلك التي أثبتتها في الكتاب؟!!

أسامة رسم صورة مشرفة للمرأة

أغلب الظن أن أسامة بن منقذ، كما يدل على ذلك منهجه في كتابة "الاعتبار" أو إملانه، كان عفواً وصريحاً وصادقاً في ما يقدمه من أخبار وحوادث وحكايات إلى أبعد الحدود، حتى إنه لم يتحرج، مثلاً، في تصوير ذلك الرجل من أبناء عمومته "سنان الدولة بن شبيب" على ذلك النحو الخرع المتخاذل.

وهكذا نصل إلى القول دون مبالغة: يالها من صورة مشرفة رسمها أسامة بن منقذ للمرأة العربية، وطنية، غيرة، في أعلى درجات الشعور بالمسؤولية العامة، حكيمة، حريصة على شرفها: عرضاً ووجداناً، ترتدي الدرع السابغ وتضع الخوذة وتحمل السيف والرمح، وتمتطي صهوة

حصانها، تسابق الريح والموت، كي تتفاح عن أرضها وتدفع الصليبيين الغزاة.. وتثير الحمية وتستصرخ الرجولة الكامنة في نفوس الضعفاء المتخاذلين.

كان هذا يحدث في واحدة من أصعب الحقب وأخطرها في تاريخ الأمة العربية، حيث الكثيرون أداروا ظهر المجن، والكثيرون أيضاً تعاملوا مع العدو، والكثيرون حرقوا المعركة، - في وعي... أو دون وعي - نحو مسارات جانبية جانحة، لم يكن ذاك وقتها، ولا كانت تلك أرضها. يومذاك كان الغزو الصليبي في أوج قوته وتوسعه وغطرسته... وأخذت المرأة العربية دورها في المواجهة والقتال... دون توان أو تردد.



- (٥) - مداخلة أقيمت في المهرجان الذي أقيم في مدينة حماه بمناسبة مرور تسعة قرون على ميلاد أسامة بن منقذ عام ١٠٩٥م.
- (٦) و (٦٦) و (٦٦٦) : كتاب "الاعتبار" لأسامة بن منقذ. حرره وقدم له د. فيليب حنبل - مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة - المقدمة: ص (أ) و (ب) ..

الحواشي

- ١ - في "الجامع الصغير" للسيوطي، قال: عن أنس بن مالك... الحديث... أخرجه أحمد بن حنبل في المستدرج للنسائي والبيهقي في السنن، والحاكم في المستدرج.
- ٢ - لم يترجم هذا الكتاب، ولكن الكاتب اللبناني إبراهيم العريس عرضه في صحيفة "الحياة" بتاريخ ١٩٩١/١٢/٣١
- ٣ - ديوان أسامة بن منقذ - الطبعة الثانية ١٩٨٣ - دار "عالم الكتب" بيروت حققه وقدم له: د. أحمد أحمد بدوي - حامد عبد المجيد - المقدمة: ص ١٥
- ٤ - ديوان أسامة بن منقذ - ص ٥١
- ٥ - المصدر نفسه ص ٥٢
- ٦ - المصدر نفسه ص ٦٤
- ٧ - المصدر نفسه ص ٣٧-٣٨
- ٨ - أسامة بن منقذ - حسن عباس - الهيئة المصرية العامة للكتاب - الإسكندرية - ص ٨
- ٩ - المصدر نفسه ص ٩
- ١٠ - ديوان أسامة بن منقذ - ص ١٥٥
- ١١ - المصدر السابق ص ٥٩
- ١٢ - المصدر السابق ص ٦٣

- ١٣ - المصدر نفسه ص ٦٥
- ١٤ - المصدر السابق - ص ٧٣
- ١٥ - المصدر السابق ص ٦٧
- ١٦ - كتاب الاعتبار - أسامة بن منقذ ، دار الفكر الحديث - بيروت - مراجعة وتدقيق د. حسن الزين ١٩٨٨ - ص ٧١
- ١٧ - المصدر نفسه - ص ٧٢
- ١٨ - المصدر نفسه ص ٧٢
- ١٩ - الاعتبار نفسه - ص ١١٣
- ٢٠ - المصدر نفسه ص ١١٣
- ٢١ - المصدر نفسه ص ١١٣
- ٢٢ - الاعتبار ص ١١٤
- ٢٣ - المصدر نفسه ص ١١٤ - ١١٥
- ٢٤ - كتاب الاعتبار ص ١١٦
- ٢٥ - المصدر نفسه ص ١١٦
- ٢٦ - الاعتبار ص ١١٧ - ١١٨
- ٢٧ - المصدر السابق - ص ١١٨ - ١١٩

